



# هبة القدس: المعاني والآفاق

د. وليد سالم

مدير تحرير مجلة المقدسية

## مقدمة: حالة الكفاح الفلسطيني قبل هبة القدس

كانت انتفاضة عام 2000م آخر محاولة فلسطينية كفاحية شاملة؛ لتحقيق الاستقلال الوطني الفلسطيني في دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران عام 1967م، واندلعت مؤخرًا حملة كفاح فلسطيني شامل جديدة أخرى، انطلقت من باب العامود وساحات المسجد الأقصى، خلال شهر رمضان المبارك نيسان - أيار 2021م، ويبدو من رُود الأفعال الإسرائيلية الانتقامية، بأنها قد تستمر إلى وقت لا يُعرف مداه.

بعد انتفاضة عام 2000م، انتقل الكفاح الوطني الشعبي الفلسطيني إلى المحلّة، ليَتَّخَذَ شكل هباتٍ في مواقع بعينها، فيما تقوم المواقع الأخرى بدور الإسناد. جاء هذا التطوُّر في ضوء عواملٍ مختلفةٍ بعضها موضوعيٌّ: كخروج الجيش الإسرائيلي من قطاع غزة عام 2005م؛ ما جعل استمرار الاشتباك الانتفاضي الشعبي المباشر معه غير مُمكن، وانكفاء قوات الجيش الإسرائيلي إلى خارج المُدن الفلسطينية في الضفة قبل ذلك، وتحوُّل الجيش

الإسرائيلي إلى استخدام الأبراج المحصنة، وسيارات الجيب المؤمنة في مواجهة المظاهرات الفلسطينية التي استمرت في مواقع محددة، مثل: كفر قدوم، وبلعين، ونعلين، وأم سلمونة، وقرى الأغوار، وقرى مسافر يطا. وترافق ذلك مع العوامل الموضوعية في الجانب الاقتصادي، حيث بينت محاولات الانفكاك عن الاقتصاد الإسرائيلي في الضفة عدم قدرة على التنفيذ بسبب الإجراءات الإسرائيلية الكابحة لأي خروج عن بروتوكول باريس الاقتصادي، لعام 1994م، والذي يتعامل مع فلسطين المحتلة عام 1967م، و«إسرائيل» في إطار اتحاد جبركي واحد، ومن الأمثلة على فشل تجارب الانفكاك، تجربة التوقف عن استيراد العجول من «إسرائيل» عام 2019م، وما تلاه من وقف «إسرائيل» لاستيراد المنتجات الزراعية الفلسطينية ومنعها لفلسطين من استيراد عجول من دول بديلة، وفي النهاية اضطرت فلسطين لاستيراد العجول من «إسرائيل»، كما عادت عن كل قرارات الانفكاك الاقتصادي عنها. شهدت ذات الفترة حروباً ثلاثة على قطاع غزة اكتست طابعاً دموياً وتدميراً في أعوام 2008، و2009، و2012، و2014م.

يُضاف للعوامل الموضوعية الكابحة للفعل الانتفاضي الفلسطيني الشامل، عوامل ذاتية، لعل أولها يتمثل في عدم تطوير رؤية لانتفاضة فلسطينية ثالثة تأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف عن الانتفاضات السابقة من حيث انسحاب الجيش الإسرائيلي خارج المدن الفلسطينية في الضفة وخارج غزة، ومشكلات المقاطعة الاقتصادية لمنتجات الاحتلال، في ظل حاجة غزة المغلقة من جميع الجهات إليها، وعدم التركيز على الزراعة، وتطوير بدائل وطنية للمنتجات الإسرائيلية في الضفة، وعدم اعتماد نهج التنمية المبني على المجتمع المحلي لتعزيز الاعتماد على الذات اقتصادياً. ولعل من العناصر المهمة لتطوير مقاومة فلسطينية شاملة، القيام بنائها على سبته أسس: كفاحية وميدانية على الأرض، واقتصادية تنموية لبناء الاقتصاد المعتمد على الذات المنتجة والبعيد عن الاستهلاكية المفرطة، وقانونية عبر تقديم قضايا ضد الاحتلال وجرائمه في المحاكم الدولية، ودبلوماسية سياسية عبر زيادة



الاعترافِ بِفِلَسْطِينِ، واستصدارِ المزيدِ مِنَ القراراتِ الدَّوْلِيَّةِ الدَّاعِمَةِ لِقَضِيَّتِهَا، ومعرفةٍ عَبرَ نقضِ الرِّوَايَةِ الصَّهْيُونِيَّةِ، وتعزيزِ الحَقِيقَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، وإعلامِيَّةٍ عَبرَ كَشْفِ الممارساتِ الاحْتِلَالِيَّةِ وَفَضْحِهَا، فِي الإِعلامِ المَقْرُوءِ، والمَرْتَبِيِّ، والمَسْمُوعِ، والإِلِكْتروْنِيِّ. بِحَيْثُ تُشْمَلُ هَذِهِ الأُسُسُ السَّتُّ مُشَارَكَةُ كُلِّ قِطَاعَاتِ الشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيِّ فِي أَمَاكِنِ تَوَاجُدِهِ فِيهَا كَافَّةً، وَمُشَارَكَةُ مُنَاصِرِيهِ، وَقُوَى التَّضَامِنِ وَالبَرِّالْمَانَاتِ، وَالحُكُومَاتِ المُسَانِدَةِ فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالعَالَمِ، وَقَبْلَ كُلِّ ذَلِكَ مُشَارَكَةُ التَّنَاغَمِ، وَالتَّنَسُّقِ بَيْنَ الجُهِودِ الرَّسْمِيَّةِ، وَالجُهِودِ الشَّعْبِيَّةِ فِيهَا، وَتَحْقِيقُهَا، بِتَنْظِيمِ مَنْظَمَةِ التَّحْرِيرِ الفِلَسْطِينِيَّةِ.

بَعْضُ جَوَانِبِ هَذِهِ الرُّؤْيَا الجَدِيدَةِ لِلْمَقَاوِمَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ الشَّامِلَةِ، قَائِمَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي نَشَاطَاتِ حَرَكَاتِ المِقَاطَعَةِ وَالعُقُوبَاتِ، وَسَحْبِ الاسْتِثْمَارَاتِ، وَفِي حَرَكَاتِ الجَلِيَّاتِ الفِلَسْطِينِيَّةِ وَقُوَى التَّضَامِنِ العَالَمِيَّةِ، وَفِي النِّشَاطِ الدِّبْلُومَاسِيِّ السِّيَاسِيِّ وَالقَانُونِيِّ فِي المَحَافِلِ وَالهَيْئَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الجَوَانِبَ يَنْقُصُهَا التَّنْظِيمُ وَالتَّكَامُلُ، وَدَوْرُ المَايسْتَرِو الَّذِي يُنْسِجُ أُسَاقَهَا، مِنْ خِلَالِ مَنْظَمَةِ التَّحْرِيرِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، وَبَعْدَ مَعَالِجَةِ حَالَاتِ الانْقِسَامِ وَالتَّشْطِيِّ دَاخِلَ السَّاحَةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ، وَكَذَلِكَ فِي صَفُوفِ الشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيِّ وَلا جُنْيِهِ، وَجَالِيَاتِهِ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الأَرْضِ.

لَا تَعِيشُ الحَيَاةُ النِّضَالِيَّةُ الفِلَسْطِينِيَّةُ فِي فِرَاغٍ إِلَى حَيْثُ يَزُوجُ الرُّؤْيَا الشَّامِلَةَ لِلْكَفَاحِ الفِلَسْطِينِيِّ، وَتَفْعِيلِ قِيَادَتِهَا المُنْظَمَةِ، وَلَكِنَّ مَا حَصَلَ هُنَا أَنَّ الكِفَاحَ الشَّعْبِيَّ الفِلَسْطِينِيَّ، لَا سِيَّمًا فِي الدَّخْلِ، كَانَ قَدْ تَشَطَّى، وَأَصْبَحَ مَحَلِّيًّا حَتَّى جَاءَتْ هَبَّةُ رَمَضَانَ الَّتِي اشْتَعَلَتْ فِي القُدْسِ، وَامْتَدَّتْ هَبِّيُّهَا إِلَى كُلِّ الوَطَنِ وَسَاحَاتِ العَالَمِ العَرَبِيِّ وَالعَالَمِ، كَمَا أَنَّ هَذَا الكِفَاحَ لَمْ يَعدُ مُتَعَلِّقًا بِالشُّعَارَاتِ الكَبْرَى لِلتَّحْرِيرِ الوَطَنِيِّ وَالاسْتِقْلَالِ، بَلْ أَصْبَحَ حَتَّى هَبَّةُ رَمَضَانَ الأَخِيرَةِ، يُمَثِّلُ حَالَاتٍ مِنَ الهَبَّاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ رَدُودَ أَفْعَالٍ عَلَى إِجْرَاءَاتِ احْتِلَالِيَّةِ اسْتِيطَانِيَّةِ اسْتِعْمَارِيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ؛ بِهَدَفِ إِحْطَاقِ الهَزِيمَةِ بِهَا، وَتَعْزِيزِ تَثْبِيتِ الوجودِ الفِلَسْطِينِيِّ عَلَى أَرْضِ وَطَنِهِ.

لم يُقلل هذا التحوُّل من بطولةِ الفاعلينَ على الأرضِ، ولا من نُبلِ أفعالهم، وإخلاصهم، وتضحياتهم، ولكنه ربَّما يزيدُ من قيمةِ هذه البطولاتِ؛ كونها تتمُّ بجهودٍ محلِّيَّة، في ظلِّ غيابِ إستراتيجيةٍ مقاومةٍ منظمَّةٍ وشاملةٍ. ويمثِّل النَّجاحُ في دَحْرِ محاولاتِ الاحتلالِ ترحيلَ فلسطِينيي الخانِ الأحمرِ، والمعاركِ المستمرَّة لِتثبيتِ وجودِ العراقيبِ، وغيرها من القرى غيرِ المعترفِ بها إسرائيلياً في النَّقبِ، وكفاحِ اليافاويينَ ضدَّ بيعِ شركةِ عميدارِ الإسرائيلىِّ عقاراتهم، وكفاحِ قرى الأغوارِ، ومسافرِ يطاَ المستمرِّ أمثلةً على هذا الكفاحِ البطوليِّ المثابرِ والمنقطعِ النَّظيرِ.

### حالة الكفاح في القدس

في القدسِ، يكتسبُ الوجودُ الفِلسطِينيُّ معنىً إضافياً خاصاً، حيثُ مركزيةُ القدسِ كعاصمةٍ لفِلسطِين، وأهميَّتها الدَّوليَّة، والسَّعيُّ الصَّهيوئِيُّ لِتحويلِها بناءً على ذلك، إلى مِفْتاحٍ لتنظيمِ كلِّ الحجاجِ الدَّوليِّ والعربيِّ والإسلاميِّ إليها، من خلالِ البوابةِ الإسرائيلىَِّّة، إضافةً للمساعيِّ الإسرائيلىَِّّة المحمومة لِتهويدها وأسرِّلتها بشكلٍ شاملٍ مكاناً، وأرضاً، وإقليمياً، وفضاءً، ومشهداً، بتغييرِ معالمها الأثريَّة، واختراعِ أماكنٍ توراتيَّة فيها، وفرضِ مشهدٍ عبريِّ عليها عَبْرَ مشاريع، مثل: التلْفريكِ من جبلِ الزَّيتونِ نحوَ حائطِ البُراقِ، ومشروعِ القطارِ من حائطِ البُراقِ إلى تلِّ أبيبِ، وإنشاءِ الحدائقِ التَّوراتيَّة. هذا إضافةً لاختراقِ القدسِ من الدَّاخلِ عَبْرَ المساعيِّ لِترحيلِ فلسطِينييِّها، وإحلالِ مُستوطنينَ مُستعمرينَ مكانهم، في الشَّيخِ جراحِ وحراراتٍ مختلفَةٍ من سُلوآنَ، والمخطَّطاتِ لاقتلاعِ قريةِ الوجَّةِ قُربَ بيتِ لحمَ وترحيلِ مواطنيها، والمخطَّطاتِ الأخرى لِتوسيعِ ما يُطلقُ عليه اسمُ مستعمرةِ «هار حوماه» المقامة على أراضي جبلِ أبو غنيمِ المحاذي لِبيتِ ساحورَ، ومستعمرةِ عطروتَ على حسابِ مطارِ القدسِ، ومستعمرةِ «جفعات هاماتوس» على حسابِ أراضي قريةِ بيتِ صففا، ومستعمرةِ «إي-1-أ1» الهادفة لِتوسيعِ مستعمرةِ «معاليه أدوميم»؛ بما يقطعُ التَّواصلَ الإقليميَّ الفِلسطِينيَّ من جهةِ الشَّرْقِ. هذا ناهيك عن



التوسيع المستمر للقدس على حساب أراضي باقي الوطن، بما يشمل الخطط الاستعمارية الصهيونية الجاري العمل عليها حالياً لتوسيع ما يُسمى «بالقدس الكبرى» لتصل حتى البحر الميت شرقاً، ومشارف مدينة الخليل جنوباً، وحتى منتصف الطريق إلى مدينة نابلس شمالاً. ولا يكاد يمرُّ يومٌ دون الإعلان عن خطةٍ إسرائيليةٍ جديدةٍ لتهويد المدينة؛ ما يجعل حياة المقدسيِّ الفلسطينيِّ اليومية حكاية صمودٍ يوميٍّ، فالدِّفاع عن الوجودِ اليوم، لا يكفي لحماية هذا الوجودِ في اليومِ التَّالي، ففي اليومِ التَّالي عليك كمقدسيٍّ أن تُعيدَ حوضَ معركةٍ تثبيتِ الوجودِ من جديدٍ، وهكذا كلُّ يومٍ. هذا ما أصبحت عليه الحالة المقدسية، حالة دفاعٍ مستمرٍّ عن الوجودِ، مجردِ الوجودِ. وبلغتْ أخرى حالة صراعٍ للبقاء في الحيزِ ومنعِ التَّهجيرِ والاقْتلاعِ منه.

في هذه المعركة لحفظِ الوجودِ، يتحرَّكُ المقدسيُّون لدى استشعارِهم للخطرِ، وكرَّدَ على عدوانِ إسرائيليٍّ، وفي إطارِ هذا الاستشعارِ خاضوا هبةً 2014م، بعد حرقِ الشَّهيدِ محمد أبو خضيرٍ إثرَ خطفِ مجموعةٍ من عتاةِ المستوطنين المتطرِّفين إيَّاه، ثمَّ حقَّقوا الانتصارَ في منع تركيبِ البواباتِ على مداخلِ المسجدِ الأقصى عامَ 2017م، ومنعوا تحويلَ مُصلَّى بابِ الرَّحمةِ إلى كنيسٍ يهوديٍّ عاميٍّ 2018م و2019م، وكتبُحوا عزمَ الاحتلالِ لفرضِ ضرائبَ على الكنائسِ المسيحيةِ المقدسيةِ عامَ 2018م، ومنعوا الاحتلالَ خلالَ هبةِ رمضانَ 2021م، من إغلاقِ بابِ العامودِ الشَّريانِ الحيويِّ للقاءِ المقدسيِّين أصدقاءً، ونشاطاتٍ ثقافيةً وفنيةً، تماماً كما كانتْ ساحةُ (أغورا) في أثينا القديمة، كما أوقفوا في الفترة نفسها اقتحاماتِ المُستوطنين المُستعمرين للأقصى، وتصدُّوا لقمعِ الاحتلالِ لمسيره سبِّ النورِ التي نظَّمها مسيحيُّو القدس، يومَ الثَّاني من أيارَ 2021م، وشاركَ المقدسيُّون بقضِّهم وقضيضِهم في تحقيقِ هذه الإنجازاتِ، بشيبيهم وشبَّانهم، ورجالهم ونسائهم، وبفصائلهم الفلسطينيَّةِ والمستقلِّين عنها، وبمُسلميهم ومسيحييهم، بالمساواةِ بينَ الجميعِ، ودونَ استثناءٍ أحدٍ، ولا سَطوَّةَ لأحدٍ على الآخرِ، ورفعوا شعاراتٍ وطنيةً لا فتويةً إلا في

حالاتٍ محدودةٍ رُفِعَتْ فيها شعاراتٌ فثوئيةٌ، وجرى تطويقها سريعاً. وبهذا أرسلوا رسالةً للعالم بأنَّ القدسَ فلسطينيةٌ عربيةٌ لا بالشعارِ فقط، ولكنَّ من خلالِ أهلها الذين يصنعون الصُّمودَ يومياً فيها، وأنَّ زيارةَ المدينةِ تتمُّ فقط، من خلالِ التنسيقِ معِ أهلها الفلسطينيينِ الشرعيين، وليس من خلالِ بوابةِ الاحتلالِ.

### حكايةُ بابِ العامودِ:

بعدَ توقيعِ اتفاقِ إعلانِ المبادئِ الفلسطينيِّ الإسرائيليِّ (اتفاق) عامِ 1993م، حولِ احتلالِ بابِ الخليلِ المؤدِّي إلى البلدةِ القديمةِ، باباً لدخولِ اليهودِ بشكلٍ خاصٍّ إليها لُقربهِ المباشرِ للقدسِ الغربيةِ، كما حوِّلَ بابُ المغاربةِ إلى بابٍ لدخولِ المتطرفينِ اليهودِ والأفنجليكانيينِ المسيحيينِ إلى المسجدِ الأقصى، وحتى عامِ 2020م بقيَ بابُ العامودِ وسائرُ الأبوابِ القديمةِ مفتوحةً لدخولِ الجميعِ، وفي الممارسةِ كانَ بابُ العامودِ وبابُ الجديدِ، وبابُ الساهرةِ، هي الأبوابُ الثلاثةُ الرئيسةُ التي يَستخدِمُها الفلسطينيونَ مسلمينَ ومسيحيينَ للتفادِ إلى البلدةِ القديمةِ، دونَ أن يَمَنعَ ذلكَ دخولَ اليهودِ أيضاً من هذه الأبوابِ. هكذا كانتِ الحالُ حتى تشرينِ أوَّل / أكتوبرِ عامِ 2020م، حيثُ قامَ الاحتلالُ بوضعِ لافتةٍ معدنيَّةٍ على مدخلِ بابِ العامودِ باسمِ «هدار وهداس»، وذلكَ تكريراً منه لِمُجَنَّدَتَيْنِ قُتِلتا عامي 2016 و2017م، هما هدار كوهين وهداس ملكا. ولذلكَ لم يكنِ صُدفةً أن قامَ الاحتلالُ بإغلاقِ بابِ العامودِ في بدايةِ رمضانَ الجاري؛ لِمَنعِ التَّجمُّهاتِ الفلسطينيَّةِ فيه بذريعةِ «تسهيلِ حركةِ المرورِ وعدمِ عرقَلتِهِ»، فهذا الإجراءُ الذي طُرِحَ على أنَّه مجردُ إجراءٍ تقنيٍّ أرادَ استكمالَ خطوةِ أكتوبرِ الماضي، بإعادةِ تسميةِ بابِ العامودِ بأسماءِ يهوديةٍ، وبالتالي البدءِ في حصرِ حريَّةِ وجودِ الفلسطينيينِ فيه، وذلكَ لِتسهيلِ حركةِ دخولِ اليهودِ المتطرفينِ وخروجهم من البلدةِ القديمةِ وتيسيرها عبره دونَ «عثراتٍ جسديَّةٍ» فلسطينيةٍ. أدركَ شبابُ القدسِ وشابَّاتُها هذا الخطرَ، فهَبُّوا لِمَنعِهِ ونجحوا في ذلكَ، ولكنَّ ذلكَ لا يعني وجودَ آيةٍ



ضمانه؛ لئلا يُعيدَ الاحتلالُ الكرَّةَ من جديدٍ مستقبلاً، فالحياةُ في القدسِ هي كَرٌّ وقرٌّ مع الاحتلالِ، بشكلٍ يوميٍّ.

### الكفاحُ في مواقعِ القدسِ الأخرى

وإذ نجحَ المقدسيُّونَ، حتَّى الآنَ، في تثبيتِ منعِ التَّقسيمِ المكانيِّ والزَّمانيِّ للمسجدِ الأقصى، ومنعِ تهويدِ بابِ العامودِ، فإنَّ معاركَ الكرِّ والقرِّ مستمرةٌ ضدَّ التَّرحيلِ في الشَّيخِ جراحِ الذي نَشَرَتِ المقدسيَّةُ مقالةً تشرحُ ما يجري فيه في العددِ السَّابقِ منها، ومواقعِ سلوانِ البستانِ (المخطَّطات الإسرائيلية لِتَرْحيلِ 1000 شخصٍ تمهيداً لإقامةِ حديقةٍ توراتيَّةٍ) وبطنِ الهوى (المخطَّطات الإسرائيلية لِتَرْحيلِ 700 شخصٍ، تمهيداً لتوسيعِ مستعمرةٍ قامتْ بإنشائها منظمةُ «إعداد» الصَّهيوئيَّةِ المُتطرِّفةُ، كما يُعاني أهلُ بطنِ الهوى من الحفريَّاتِ الإسرائيليَّةِ الجاريةِ ليلَ نهارٍ تحتِ بيوتهم)، ووادي الرِّبابةِ (المخطَّطات الإسرائيلية لِتَرْحيلِ 800 فلسطيْنِيٍّ، تمهيداً لإقامةِ حيٍّ استعماريٍّ لليهودِ الفرنسيِّينَ)، ووادي ياصولَ (المخطَّطات الإسرائيلية هُدمَ بيوتُه كُلُّها المكوَّنة من 88 بيتاً، بهدفِ توسيعِ ما يُسمَّى بـ«غابة السلام»)، هذا، إضافةً لمُخطَّطاتٍ أخرى بشأنِ حاراتٍ أخرى في سلوانَ، كوادي حُلُوَّةٍ وعينِ اللُّوزة.

الملحوظةُ هنا أنَّ الكفاحَ من أجلِ الدِّفاعِ عن الأقصى وبابِ العامودِ اتَّخَذَ طابعاً مقدَّساً شاملاً، وكذلك الكفاحُ للحِفاظِ على الشَّيخِ جراحِ. وهو ما يحتاجُ لمُدَّةٍ من أجلِ حمايةِ مواقعِ سلوانِ المذكورةِ أيضاً، وبمُشاركةٍ واسعةٍ ممَّنَ يقطنونَ في أحياءِ القدسِ وخارجها، إضافةً لمُشاركةِ نُشطاءٍ ونشيطاتٍ يَساريِّينَ يهودٍ وأجانبَ. ويتطلَّبُ الأمرُ، إذنَ، الانتقالَ للعملِ من أجلِ جَعْلِ الكفاحِ ضدَّ التَّرحيلِ منْ مواقعِ القدسِ شاملاً، كما هو الكفاحُ بشأنِ قضايا الأقصى، وبابِ العامودِ، والشَّيخِ جراحِ. ويستدعي ذلك الدَّعوةَ للحمايةِ الدَّوليَّةِ الفُوريَّةِ للمقدسيِّينَ ضدَّ إجراءاتِ التَّرحيلِ الدَّاهيةِ.

## اليوم التاريخي: العاشر من أيار

كان يوم العاشر من أيار (الثامن والعشرون من شهر رمضان المبارك) 2021م، يوماً مفصلياً، يوماً عن ألف يوم، من حيث الأحداث التي شهدها، وكذلك من حيث الدروس التي حملها، في ذلك اليوم وصلت هبة القدس ذروتها.

قبل يومين من العاشر من أيار، أي يوم الثامن منه تقاطرت مئات الحافلات التي كانت تَقُلُّ فلسطيني الداخل، مساءً نحو القدس؛ من أجل المشاركة في أحياء ليلة القدر في المسجد الأقصى المبارك. قرب قرية أبو غوش نصبت شرطة الاحتلال حواجزها لمنع الحافلات من العبور نحو القدس، فما كان من رُكَّابها من فلسطيني الداخل إلا أن نزلوا من الحافلات وبدأوا المسير على الأقدام نحو القدس. سرت أخبار ذلك بين المقدسيين، فهبوا بسياراتهم الخاصة لنقل إخوتهم وأخواتهم من فلسطيني الداخل حاملين معهم حبات التمر والماء من أجل تقديمها لهم عند أذان الإفطار. وتقاطرت سائفو سيارات الأجرة لنقل أهلهم من الداخل مجاناً إلى الأقصى، وسارع مقدسيون آخرون إلى نصب موائد الإفطار في كل المداخل المؤدية إلى المسجد. أدى مشهد الآلاف المؤلفة السائرة على الأقدام نحو القدس، وآلاف السيارات المقدسية التي وصلت هناك لنقلهم نحو المسجد الأقصى إلى إغلاق الطريق المعاكس من القدس إلى تل أبيب، وكان الدرس بليغاً للشرطة الإسرائيلية والحكومة التي تقف وراءها، تغلقون طريق تل أبيب - القدس، لا بأس، نحن سنزُدُّ بإغلاق الطريق المعاكس من القدس إلى تل أبيب. فهمت الشرطة الرسالة برسرة وأجبرها الموقف على فتح الطريق نحو القدس لكي تضمن إعادة فتحه من الاتجاه المعاكس. وكان الدرس بليغاً بأن «إسرائيل» لا تستطيع فرض ما تشاء على الأرض. ومن جهة أخرى تحققت وحدة الشعب الفلسطيني من خلال اللقاء على أرض المعركة، وتجسدت على الأرض دون بيانات ولا شعارات.



في ذلك اليوم (الثامن من أيار)، كانت المعلومات قد تأكدت عن نيّة غلاة المستعمرين تنظيم مسيرة خلال ما يُسمّى بـ «يوم القدس»، وأنّ المسيرة ستُمرُّ كما فعلت عام 2020م في باب العامود بحماية من الشّرطة الإسرائيليّة، وتتّجهُ لاقتحام المسجد الأقصى؛ استعدادًا لذلك رابط المقدسيّون وفلسطينيو الدّاخل داخل المسجد الأقصى. وفي صباح العاشر من أيار وقف عددٌ من غلاة المستوطنين على بوابة باب المغاربة، منهم أعضاء كنيست مطالبين الشّرطة بأن تُخلّي لهم الطّريق لكي يتمكنوا من اقتحام الأقصى. حاولت الشّرطة إخلاء المسجد من آلاف المصلّين المسلمين لكي تُهيّج الدّخول للمستوطنين، ولكنها لم تتمكّن من ذلك، كما أنّ مناوشات الشّباب المقدسيّين مع قوّات الاحتلال قد استمرت طيلة اليوم في كلّ أنحاء المدينة؛ ما اضطرّ الشّرطة الإسرائيليّة لاتّخاذ قرارٍ بمنع مرور مسيرة المستوطنين من باب العامود، ومنع توجيهها نحو الأقصى لحماية للمستوطنين المُستعمرين. ما حصل بعد ذلك أنّ المسيرة ذاتها، والتي لم تمرّ باب العامود، قد تفرّقت وهرب المشاركون فيها، فور إطلاق الصّواريخ الفلّسطينيّة من غزّة نحو القدس في تمام السّاعة السادسة مساءً. وكانت تلك أوّل مرّة يتمّ فيها إلغاء استكمال تلك المسيرة منذ عام 1967م.

على الجبهات الأخرى، داخل المدينة، كانت عائلات الشّيخ جراح قد حصلت يوم الثاني من أيار على قرار قضائيّ إسرائيليّ بتجميد قرارات ترحيلها لمُدّة شهر، وذلك حتّى يتسنى خلالها للمستشار القضائيّ للحكومة الإسرائيليّة النّظر في القضية مجدّدًا، وإعطاء رأيه فيها. التّجميد الذي تمّ لا يعني أنّ قرار التّرحيل سيُلغى، ولكنّ فرصة تحقيقه كانت عاليةً، إذ وصل «هاشتاغ» الشّيخ جراح إلى قسم هائلٍ من سُكّان العالم، حيثُ تُرجم إلى لغات كثيرةٍ مختلفيّة، كما أنّ قضية الشّيخ جراح والمسجد الأقصى، قد استشارت هبةً شعبيّةً فلّسطينيّة عمّت كلّ أرجاء الوطن والدّاخل الفلّسطينيّ، كما انتشرت في عديدٍ من المدن العربيّة مظاهرات حاشدة، وسقط شهيدٌ في المظاهرة اللّبنايّة على الحدود مع «إسرائيل»، وجرحى أردنيّون في مظاهرة أخرى على الحدود. وسارت

مسيرات حاشدة في مختلف المدن الأمريكية، وفي مدن الدول الإسلامية، كتركيا، وباكستان، وغيرهما. وأطلقت صواريخ باتجاه «إسرائيل» من لبنان وسوريا، ودخلت غزة في حرب مع «إسرائيل» لمدة أحد عشر يوماً باسم «سيف القدس» ابتداءً من يوم العاشر من أيار المشهود الذي عبّر عن وحدة فلسطينية شاملة ومنقطعة النظر، وبتناغم كامل بين كل أبناء الشعب الفلسطيني في كل أماكن تواجده. وتكرّر المشهد ذاته في يوم الإضراب الشامل، يوم الثلاثاء الثامن عشر من أيار، والصفحات الكفاحية المجيدة التي سطرها الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده كافة في ذلك اليوم. الرهان هو على استمرار هذا الزخم الكفاحي والتضامني، فهو العامل الوحيد الذي يمكن أن يُفشل مُحطّطات الترحيل من الشيخ جراح وسُلوان، وبوقفه سيعود الاحتلال لتنفيذ مُحطّطاته دون رادع.

إلى أين من هنا؟ نحو تحقيق النصر والتحرير؟. ليس بعد، وبالنسبة للقدس، لعله يكفي استمرار الكفاح من أجل تثبيت الوجود بوصفه معركة مستمرة، ليس فقط من أجل منع الترحيل، وإنما أيضاً من أجل بناء الذات ممثلة بالأسماح البشري الفلسطيني النوعي في القدس الذي يملك المهارات والقدرات لخلق وطن حرّ جدير به، من خلال الكفاح المشترك مع الكل الفلسطيني.

### الافاق: تثبيت الوجود كمعركة مستمرة

طرح في سنوات السبعينيات من القرن الماضي ما أُطلق عليه اسم «إستراتيجية تعزيز صمود الشعب الفلسطيني على أرضه». وعبرت هذه الإستراتيجية عن نفسها من خلال الدعم المالي لقطاعات السكن والزراعة والصحة وغيرها، ونشطت الدول العربية والإسلامية في هذا المجال، كما بادرت الولايات المتحدة لتقديم أول مليون دولار عام 1975م، تحت عنوان آخر سُمي بـ «تحسين أحوال معيشة الفلسطينيين»، وسار الاتحاد الأوروبي في ذات الركب.



لاقت سياسات دعم الصمود لاحقاً انتقادات واسعة تم التعبير عنها في «مؤتمر التنمية من أجل الصمود» الذي عقده الملتقى الفكري العربي في القدس عام 1983م، وتركز النقْد على أمرين:

- الأول أن مفهوم دعم الصمود قد انطلق من النظر إلى الإنسان الفلسطيني بوصفه كائناً ساكناً لا حول له ولا قوة، وأن ما ينقصه لا يتعدى الدعم المادي لكي يتمكن من البقاء على أرضه.

- والثاني: أن هذا المفهوم ومعه مفهوم «تحسين ظروف معيشة الفلسطينيين» قد توجهتا لخلق حالات صمود وتحسين أحوال معيشية في ظل الاحتلال، وذلك عوضاً عن توجيهها لخلق تنمية متراكمة على طريق التحرر من الاحتلال، أسماها مؤتمر الملتقى الفكري العربي حينذاك بـ «التنمية من أجل الصمود»، وأسماها خليل نخلة باسم «التنمية التحررية المرتكزة على الناس»، ومع الانتفاضة الأولى أصبحت «تنمية من أجل الصمود والبناء»، كما أسماها خبراء التنمية وخبرائها في فلسطين حينذاك.

يترتب عما سبق أن الإنسان الفلسطيني قد تجاوز على الأرض مفهوم الصمود الساكن (أو التصميم الساكن من خلال الدعم)، إلى الفعل الذي يبني تنمية تحررية موجهة نحو بناء الاستقلال، من خلال خلق السيادة الشعبية من أسفل، كخطوة أولى في مواجهة السيادة الرسمية التي فرضها الاحتلال. تنطبق هذه العبارة على فلسطين، لا سيما انتفاضتها الأولى عام 1987م، كما أنها تنطبق على القدس أيضاً.

في القدس اتخذ خلق السيادة الشعبية الفلسطينية من أسفل عدة أشكال منذ عام 1967م، تراوحت بين حفظ استقلال المؤسسات الوطنية والوقفية الإسلامية والمسيحية عن الاحتلال، وبين التنمية والمقاومة المبنية على المجتمع المحلي.

في مجال حفظ المؤسسات الوطنية والوقفية، حصل تآكل عبر الزمن في حفظ استقلالية شركة الكهزباء الفلسطينية عن الشركة القطرية-الإسرائيلية، كما حصل تآكل نسبي في استقلالية المستشفيات الفلسطينية عن صناديق المرضى الإسرائيلية. إضافة لذلك قامت «إسرائيل» بإغلاق المؤسسات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية في المدينة، ومنها بيت الشرق عام 2001م، وشددت قيودها على منظمات المجتمع المدني الأخرى. ولكن في المقابل حافظت المستشفيات الفلسطينية في القدس على خدماتها لأبناء الشعب الفلسطيني كافة في فلسطين المحتلة عام 1967م، بدعم من السلطة الوطنية الفلسطينية، وبعض جهات الدعم الدولي. ولكن الأهم هو النجاح في حفظ استقلالية الأماكن الإسلامية والمسيحية المقدسة، منذ عام 1967م، وذلك في إطار عمليات كرّ وفرّ مع الاحتلال أسمنتها هذه المقالة بعمليات «تثبيت الوجود». فالوجود الفلسطيني في القدس، كما ذكر، ليس مُعطى مستقرًا ثابتًا، بل هو وجود، على الفلسطيني المقدسي أن يكافح كل يوم من أجل تثبيته. وفيما يتعلّق بالأوقاف المقدسيون في تثبيت الواقع القائم فيها منذ العهد العثماني (الستاتيسكو)، هذا بالإضافة إلى النجاحات الأخرى التي ذُكرت آنفًا.

وللمجتمعات المحلية المقدسية وتثبيتها، وتثبيت وجودها، من خلال عمليات الكرّ والفرّ اليومي مع الاحتلال، حكاية أخرى، بدأت هي الأخرى منذ عام 1967م، ولا زالت مستمرة. والمجتمعات المحلية المقدسية، وعددها 21 داخل جدار الفصل العنصري الاحتلالي، و29 أخرى تقع ضمن محافظة القدس الفلسطينية خارج الجدار، هي موضوع مصادرة الأراضي، والافتلاع والتّهجير والإحلال. وهي الحيز الذي يكافح هذه العمليات بشكل يومي. ويتخذ الاحتلال الاستيطاني المدعوم بقوة الاحتلال العسكري في هذه المجتمعات، أشكالاً عدّة، أولها تهويد الأرض، والمكان، والحيز، والإقليم من خلال اقتلاع الفلسطينيين، وإحلال المستوطنين المُستعمرين مكانهم. وثانيها: أسرلة المؤسسات، وذلك من خلال اقتلاع المؤسسات الفلسطينية في المدينة، وطردها وإغلاقها، وإحلال المؤسسات الإسرائيلية مكانها.



وثالثها: تغييرُ المشهَدِ والفضاءِ، من خلالِ فرضِ الطَّابعِ العمرانيِّ الإسرائيليِّ على المدينة، وتغييرِ معالمِها الأثرية والحضارية، وحفرِ الأنفاقِ، واختراعِ أماكنٍ دينيةٍ توراتيةٍ لم يكن لها وجودٌ مطلقاً كـ 13 موقعاً توراتياً التي وردتْ أسماءُها في «صفحة القرن»، وأشارتْ دراسةٌ لمنظَمةِ «عميق شافيه» اليساريةِ الإسرائيلية، أنَّها كلَّها أماكنٌ مخترَعَةٌ لم تكن يوماً مقدَّسةً لليهودِ أبداً، وإنشاءً حدائقٍ توراتيةٍ في مناطق فلسطينية مثل: الطَّورِ والعيسوية، وحيِّ البُستانِ في سُلوآنٍ وغيرِها. ورابعُها هي عزْلُ المجتمعاتِ المحليَّةِ المقدَّسيةِ عن بعضها بعضاً بمستعمراتٍ استيطانيةٍ استعماريةٍ، وكذلك اختراقُها داخليةً بخلْقِ جيوبٍ استيطانيةٍ استعماريةٍ داخلها تتوسَّعُ تدريجياً كما يجري في الشَّيخِ جراحِ والبلدةِ القديمةِ من القدس، وبطنِ الهوى في سُلوآنٍ، وفي رأسِ العامودِ وغيرها من مواقعِ القدس. ويشملُ العزْلُ من جهةٍ أخرى فَصْلَ المجتمعاتِ المحليَّةِ المقدَّسيةِ عن محيطِها الفلَسطينيِّ في الضَّفَّةِ وغزَّةِ عبرَ نظامٍ مُحكَمٍ من الإغلاقِ فُرِضَ منذُ آذارِ عامِ 1993م.

هذه السياساتُ الاستيطانيةُ الاستعماريةُ الشَّاملةُ، قامتْ على أساسِ ضمِّ الأرضِ عامَ 1967م، وفُصِّلَ مواطنيها الأصليين عنها عبرَ كونهم «مواطنين أردنيين مُقيمين في أرضِ إسرائيل»، وفي السَّنواتِ الأخيرةِ بوشِرَ بتَسجيلِ صيغةِ «مقيم غيرِ محددِ الجنسية» لدى قيامِ المقدسيين بتجديدِ وثائقِ السَّفَرِ الإسرائيليَّةِ المفروضةِ عليهم؛ للتَّمكُّنِ من السَّفَرِ إلى خارجِ البلادِ.

أسفرتْ إستراتيجياتُ تثبيتِ الوجودِ الفلَسطينيِّ في القدس، بما هي خلُقٌ للسيادةِ الشَّعبيةِ من أسفلٍ عن نجاحاتٍ فيما يتعلَّقُ بالأوقافِ الإسلاميَّةِ والمسيحيةِ، وبعضِ المؤسساتِ بشكلٍ خاصٍّ، ولكنها لم تُحقِّقْ نجاحاتٍ كافيةً في منعِ الاقتلاعِ والتَّرحيلِ من المجتمعاتِ المحليَّةِ المقدَّسيةِ. إلا أنَّ تطوُّراتِ السَّنواتِ الأخيرةِ حملتْ نجاحاً فلَسطينياً في تجميدِ ترحيلِ مواطني الخانِ الأحمرِ الواقعِ في محافظةِ القدسِ حتَّى الآن. كما أنَّ عملياتِ التَّرحيلِ الجاريةِ على قَدَمٍ وساقٍ في الشَّيخِ جراحِ ومواقعٍ مختلفةٍ من سُلوآنٍ حالياً، قد استنهضتْ

حالة شعبية مقدسية لمجابتها، ساندها على أرض القدس فلسطيني الداخل، وتساندها الدبلوماسية الفلسطينية الرسمية وغير الرسمية على مستوى المحافل والمحاكم الدولية، وفي الشهر الأخير تبدى أن كل الفلسطينيين في الداخل والخارج قد تجند كلهم معاً باستعمال وسائل مختلفة من أجل إنقاذ عائلات الشيخ جراح من الترحيل من بيوتها. يُعبر ذلك عن ملمح إيجابي لعله يؤدي إلى تجميد ترحيل العائلات من الشيخ جراح، كما تم سابقاً في حالة الخان الأحمر.

أسهم النجاح في منع الاحتلال من السيطرة على باب العامود وإغلاقه منذ بداية رمضان، في إنعاش الحالة المقدسية، وتوجهها لصنع نجاح جديد في الشيخ جراح، ويجد المرء اليوم تكاتف الجميع في القدس.

ينتظر المقاومة الشعبية المقدسية النجاح في حماية الشيخ جراح، ثم مواقع بطن الهوى، وواد ياصول، والبستان، ووادي الرّبابية، وغيرها في سلوان، وكذلك النجاح في خلق تنمية محلية معتمدة على الذات ومستقلة عن الاحتلال. وإسقاط القوانين والإجراءات التي تُشعر عن مصادرة الأراضي وهدم البيوت، وإعادة السيطرة على ساحات المسجد الأقصى من الأوقاف الإسلامية، وإخراج شرطة الاحتلال من ساحاته، ووقف اقتحامات المستوطنين المستعمرين له، ومحاولات تقسيمه بكونه حقاً حصرياً للمسلمين دون غيرهم، وإعادة فتح مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في المدينة، والتي صادقت اتفاقيات «أوسلو» على وجودها في المدينة، وتأكيد حق الفلسطينيين المقدسيين غير المنقوص، في المشاركة في أية انتخابات رئاسية وتشريعية، وللمجلس الوطني الفلسطيني، ولبلديتهم المقدسية (أمانة القدس) التي أعلن الاحتلال حلها عام 1967م، وإلغاء كل قرارات الترحيل وهدم البيوت المتخذة، وشمول قضايا القدس في أي اتفاق هُدنة، وكذلك في أية مشاريع لطلب الحماية الدولية للشعب الفلسطيني

من بطشِ الاحتلالِ السّافرِ وهكذا. أيّ أنّ المعركةَ لِتَثْبِيَتِ الوجودِ الوطنيِّ الفِلسطِينيِّ في القدسِ، وتعزيزِ السّيادةِ الشّعبيّةِ من أسفلَ فيها لا زالتُ مستمرّةً، ويبدو في الأفقِ المقدسيِّ أنّها لن تتوقّفَ طالما استمرَّ الاحتلالُ في مُحطّطاتِهِ التّصفويّةِ للبشرِ والحجرِ في المدينةِ.